

خوارم المروءة

راشد بن عبد الرحمن البداح

إن "المروءة" كلمة لها مدلولها الكبير الواسع، فهي تدخل في الأخلاق والعبادات، بل في الأحكام والعبادات.

ويُقصد بها كمال الرجولة خُلُقًا ودينًا، مع مراعاة العادات والأعراف التي لا تُعارض الشرع.

ومن أحسن ما عُرِّفت به قولهم: "المروءة كمال النفس بصونها عما يوجب ذمها عرفاً، ولو مباحاً في ظاهر الحال".

ولقد أثرت كلمات عن أهل أفضل القرون تدل على عظم اعتنائهم واحتفائهم بالمروءة، فمنها:

١ - قول عمر - رضي الله عنه - : "من مروءة الرجل نقاء ثوبه، والمروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة".

٢ - قول ابن عباس - رضي الله عنهما: "لا تمازح السفهاء فتسقط كرامتك، ولا اللئام فتذهب مروءتك".

٣ - قول ابن عمر - رضي الله عنهما: "نحن معشر قريش نعد العفاف وإصلاح المال من المروءة".

٤ - قول عمر بن عثمان المكي - رحمه الله -: "المروءة التغافل عن زلل الإخوان".
وهذه المروءة مع ما لها من هذا الشرف الرضي والمكان العليّ، فإن خلائق كثيرين لم يراعوها حق رعايتها، فقدحوا في جمالها وخرموا جلالها ونقصوا كمالها.

وسبب هذه الخوارم والقوادح في المروءة:

١ / إما خبل في العقل .

٢ / أو نقصان في الدين-

٣ / أو قلة حياء وخلق -

وفيما يلي سأذكر نماذج من خوارم المروءة التي يقع فيها من قلّ عقله أو دينه أو خلقه، لكن قبل أن أفيض في ذكرها أحب أن أشير إلى أن من الخوارم ما هو محرم، ومنها ما هو مكروه، ومنها ما هو مناف للأدب والحشمة وإن لم يكن مخالفا للشرع، والقاريء الفطن - حسب معرفته - يصنف ما سيأتي على هذا النمط، فإما حرام، أو مكروه، أو لا يليق وإن لم يكن حراما، وهذا الأخير باب واسع لا يتقيد بقيد، وهو بحسب تقوى الرجل، ولذا قال ابن القيم - رحمه الله - : "إن من سعد إلى درجة الورع يترك كثيرا مما لا بأس به من المباح، اتقاء على صيانتته وخوفا عليها أن يتكدر صفوه، ويطفأ نوره" وقال: "قال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطا في النجاة".

والآن حان الشروع في ذكر بعض خوارم المروءة التي بُلي بها بعض الناس، وإن لم يشعروا بها من أهل الصلاح والأدب، أهل الزمان، فمنها:

١ / الأكل في الطريق أو الأسواق والناس ينظرون إليه :

وقد عدّه الفقهاء من الخوارم إذا كان بمرأى الناس، أما إذا أكل في السوق وهو خال من الناس أو كان مستترا فليس بمُخِلّ .

ومن الطرائف في هذا: أن الأصمعي الإمام في اللغة: كان ينكر من يقول "زوجة" للمرأة، ويقول: "زوج"، لقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فقليل له: إنها وردت في شعر ذي الرمة حينما قال:

أ ذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة أراك لها في البصرة اليوم
في البصرة ثاويا

فقال: ليس ذو الرمة بحجة، إذ طالما أكل البقل والملح في حوانيت البقالين !!

٢ / جعل النفس مسخرة، بحيث يُضحك في كلامه أو لباسه:

ويدخل فيه تقليد الناس أفعالهم وأصواتهم، قال شيخ الإسلام: "وتحرم محاكاة الناس للضحك، ويعرّز هو ومن يأمره، لأنه أذى".

كما أن فيه استخفافاً بالناس وازدراء لهم لا يخلو من العجب والكبر والاحتقار المنهي عنه! وقد قال الرسول ﷺ: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"، وهذا بخلاف الضحك والتبسم المعتاد أو إدخال السرور على أخيك المسلم، فإنه سنة وصدقة، كما قال ﷺ: "وتبسمك في وجه أخيك صدقة" وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: "لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه" رواه مسلم.

قال النووي في شرح هذا الحديث (٤٠/٣): "وفي هذا جواز الضحك، وأنه ليس بمكروه في بعض المواطن، ولا يُسقط المروءة إذا لم يجاوز به الحد المعتاد من أمثاله في مثل تلك الحال".

أما القهقهة: وهي الضحك بملء فيه مع الصوت البين، فإنها بلا شك من خوارم المروءة.

٣ / الادهان عند العطار دون أن ينوى الشراء:

ومثله تذوق الأطعمة أو الفواكه والخضراوات عند الباعة، وفي نيته ألا يريد الشراء.

٤ / التجشؤ بصوت مزعج ما وجد إلى خلافه سبيلاً:

ولما تجشأ رجل عند النبي ﷺ قال له: كَفَّ عَنَّا جِشَاءَكَ، فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة، ويزيد الأمر سوءاً إذا كان في داخل الصلاة.

٥ / البول على فارة الطريق المسلوكة، وفي الأماكن العامة:

وهذا إلى جانب دناءته فهو مؤدّ إلى كشف العورات، وإيذاء المشاة بأرجلهم وأنوفهم. وهذه الخارمة السيئة يفعلها أهل البادية ممن لا خلاق لهم.

٦ / التصريح بأقوال لم ينطق الشرع بها إلا بالكناية بلا حاجة:

وهذا فيما يستحيا من ذكره، فقد سمى الله في القرآن جماع الرجل زوجته بالمساس والملاسة والإتيان والمباشرة، وسمى ما يخرج من الدبر بالغائط.

أما عند الحاجة كالقاضي فله التصريح، ويدل على حديث رجم ماعز الأسلمي - رضي الله عنه - لما زنى.

وأما ما عدا ذلك مما لا حاجة له أو مع غير الزوجة فهو من خوارم المروءات. ومن جميل ما أثر عن الأحنف بن قيس: "جَنَّبُوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وَصَافًا لفرجه وبطنه".

٧ / تكتيف اليدين على الدُّبر:

وهذا يفعله كثير من الأجانب على وجه أخص، قال الشيخ حمود التويجري - رحمه الله تعالى - في كتابه (الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثر من مشابهة المشركين): "وهذا الفعل السخيف من أفعال الإفرنج، وأضرابهم من أعداء الله تعالى .." ثم قال "إنه فعل مستقبح عند ذوي المروءات والشَّيم، وكيف لا يكون ذلك قبيحا بالرجل أن يضع يديه على دبره، ثم يمشي بين الناس وهو على هذا الوضع المستهجن المزري بالصبيان الصغار، فضلا عن الرجال الكبار ..!"

قلت: ومثله وقريب منه في القبح، إن لم يكن أشد: وضع الدين على القُبُل، أو العبث به، فإن كان أمام الناس فَأَطْمُ !!

٨ / الرطانة بالأعجمية بلا حاجة:

قال عمر - رضي الله عنه -: "ما تكلم الرجل الفارسية إلا خَبَّ، ولا خَبَّ إلا نقصت مروءته".

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: "وأما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية - التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن - حتى يصير ذلك عادة للمرء وأهله أو لأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، فلا ريب أن هذا مكروه، فإنه من التشبه بالأعاجم".

٩ / الشرب من سقاية أهل البيت بلا ضيافة، أو السوق بلا غلبة جوع وعطش:

ولذا قال الشافعي: "والله لو أعلم أن الماء البارد يثلم مروءتي ما شربته الا حاراً" وفي رواية قال: "ما شربته، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة".

١٠ / كثرة الالتفات في الطريق:

ويدخل فيه سرعة المشي، فلقد قيل إنها تذهب بهاء المؤمن! ويدخل ضمن هذا: ما يسمى بـ "حب الاستطلاع"! وهذا تجده ظاهرا عند وقوع حريق أو حادث أو تنازع بين اثنين.

١١ / المشي أمام الناس مكشوف الرأس:

ومنه كشف ما جرت العادة بتغطيته من بدنه كصدره وظهره وبطنه وركبته، ومثله لبس ما يسمى بالبنطال أو اللباس الرياضي، والمصيبة: الصلاة فيه مع أنه يحجم العورة. واعلم أن للباس والحشمة أثرا كبيرا في احترام الناس لك، وخصوصا في مكان لا تعرف فيه.

ولذا لم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم مشى أو صلى أو خطب حاسرا رأسه، ولأجل ذلك، جرى كلام لبعض الفقهاء في كراهة كشف الرأس أثناء الصلاة.

وبغض النظر عن صحة هذا القول من عدمها، فيكفي أنه من العادات التي جرى عليها كثير من المجتمعات المحافظة، وتعارفوا على استحسانه.

علما أن هذه المسألة — أيضا — خاضعة للعرف، فتجد مجتمعات تعارفت على كشف الرأس، فحينئذ لا يُعاب ذلك عندهم ولا فعله بينهم.

١٢ / اللعب بالحمام:

قالوا: لأن الغالب فيه الاجتماع مع الأراذل، وهو فعل يستخف به ويتضمن أذى للجيران، حتى لقد قال ابن قدامة بعدم قبول شهادة اللاعب بالحمام يطيره.

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يتبع حمامة فقال: "شيطان يتبع شيطانة" رواه أبوداود وغيره بسند حسن.

والمصيبة أن بعض الفساق استغلّها في تصيّد المُردان والصبيان لمرادتهم عن أنفسهم!

١٣ / مَد الرجلين في مجمع الناس من غير حاجة ولا عذر:

حتى إنه ليقع ممن أوتي صحة وشباباً! ويفعله بحضرة من هو أكبر منه عمراً أو علماً!
 ويزداد ذلك قبحا إذا مَدَّهما أمام المصاحف كما يفعله الجهال في المساجد ولا سيما يوم
 الجمعة، مع أن باستطاعته أن ينحّي رجليه أو المصاحف!

١٤ / نتف اللحية والإبط، أو الأنف عند الناس:

فالأول قد يكون محرماً مع ما فيه من السخف والعبث، أما الآخر ففيه دناءة لا تخفى،
 وتقرّز من الناس ظاهر.

١٥ / النوم بعد الفجر:

ولقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما - لابنه لما رآه نائماً نومة الصبح: قم، أتنام
 في الساعة التي تقسم فيها الأرزاق؟!
 ونومة الصبحة إنما كانت تمنع الرزق، وتحرم البركة، لأن الأرزاق والبركات تكون في
 أول النهار، كما قال الرسول ﷺ: "اللهم بارك لأمتي في بكورها" رواه أحمد وأهل السنن.
 ولما سئل أحدهم عن المروءة، ذكر منها: لزوم المسجد إلى أن تطلع الشمس.
 ولولم يكن من فوائد هذه الخصلة إلا البقاء في المسجد لكان كافياً.
 ومن أضرار النوم بعد الفجر: أن وقتك لا ينتظم عليك باقي النهار، ولذا قال
 أبو الدرداء - رضي الله عنه - : "يومك مثل جملك، إذا قُذَّتْ أوله انقاد لك باقيه".
 وهذه النقيصة قد عمت الصالح والطالح بسبب السهر، حتى الدعاة والصالحين، والله
 المستعان.

(مع الشكر لمجلة الفرقان الكويتية)